شهادة الفلاح الفصيح في زمن الحرب

قصة بقلم محمد لويس القعيد

قال الفلاح الفصيح :

حدث ما حدث في السادس من ذي الحجة ،سنة تسع وثمانين وثلاثمائة والف من بعد هجرة الحبيب . الخامس من أمشير سنة ست وثمانين وستمائة وألف قبطية . الموافق الثاني عشر من فبراير سنة سبعين وتسعمائة وألف من بعد ميلاد السيد المسيح.

يقول المؤلف : أليوم هو يوم الخميس، في المساء ، تحدثوا ، تناولوا الامر ضمن ما تناولوه من أمور أخرى . عامت الكلمات في بحار اللغة . تحدثوا عن الخوف والشجاعة والحياة والموت. والبلاد البعيدة. والغربة والحنين . وفي آخر الامر ، انفقوا على ان الامور لم تعد تطاق . ثم انصرف كل منهم لحال سبيله . ذلك ما كان .

اليكم القصة من اولها :

١ ـ يا أشرف من سئل ويا أكرم من أجاب

« وقد ترتب على هذه الغارة ان استشهد خمسون عاملا مدنيا ، واصيب تسعة وستون عاملا باصابات مختلفة .

« وقد تم نقل المصابين الى المستشفيات فورا ، ثم ارتفع عدد الضحايا ، في المساء ، الى سبعين شهيدا » .

(متحدث باسم وزارة الداخلية)

شهر فبراير من كل عام ، تبدأ الحياة في تغيير جلدها ، تنبت اوراق خضراء ، صغيرة ، مغسولة بالندى ، على فروع الاشجار العارية ، تمتلىء الترع والقنوات الصغيرة بالمياه ، تنبت في الارض نباتات القطن والبطاطس والبرسيم ، يختلط لونها الاخضر الزاهي بسمرة الارض الرصاصية . وعلى الجسور ، وفي الحارات ، يبدأ التراب الرمادي الجاف ، في الانتشار بين الطين الرصاصي ، اللامع بفعل الشمس .

فبراير من كل عام ، تاتي الشمس الربيعية ، بدفئها كي توقظ الاشياء التي اماتها الشتاء الماضي ، توقظ الاشجار ، وعواطف الناس ، ولمعان الحياة في نظراتهم ، واحمرار الوجوه ، وتذكر الناس بانتهاء الشتاء ، وبمجيء الربيع ، حاملا معه الامل والخلاص .

فبراير من كل عام ، يحلو للرجال في الضهرية ، ان يجلسوا في الصباح الباكر ، بعد صلاة الصبح ، على المصاطب ، في الباحة الواسعة ، امام مسجد سيدي احمد عبد الله النشابي ، يتمتمون بختمة الصلاة ، يتمتعون بدفء الشمس ، يذيبون به الجليد الشتوي النائم في الاعماق ، يستنشقون الهواء الدافىء ، يرفعون عيونهم نحو الشمس الشتوية ، يبخرون البرد المتجمد في الصدور ، ويستعدون لمجيء الربيع .

وعند ارتفاع الضحى ، يذهبون الى الحقول ، يتمطى كل منهم ، يعلن كسله ، في استرخاء مشيته ، وقد يحدث نفسه ، فيفضحه بخار ابيض يخرج من فمه مع الكلمات ، وقد يقف ناظرا حواليه ، الى زراعة جاره ، وقد يرغب في العمل في الحقل، غير ان احساسه الداخلي بأن النهار فركة كعب ، ومضة حياة قصيرة الامد ، يقعده عن العمل . وحتى الحقول ، في هذه الفترة من السنة ، لا تحتاج الى عمل كثير ، فتكون حقول القطن قد زرعت ، وبذور القمح تكون قد اختمرت في باطن الارض ، وقاربت وقت الانبات ، والبرسيم يملأ الحقول بلونه الاخضر الفاقع ، يسيل عليه لون زهوره البيضاء ، ويتمايل مع هبات الرياح ، التي تاتي عادة من الجنوب .

يذهب الرجال الى الحقول ، يعودون في آخر النهار ، وآخر النهار ، هو وقت صلاة العصر ، ولا يتناولون طعام الغداء في الحقل ، لقصر النهار . ويعودون ، وكل منهم يدرك ، ان الربيع له رائحة في الحقول ، تتحدد هذه الرائحة في انوفهم ، من العام للعام الذي يليه بجملة اشياء ، برائحة زهور النباتات ، بليونة الارض تحت الاقدام ، وشكلها الفاتق السواد ، ورائحة اختمارها من كثرة ما شربت من مياه الامطار ، وعند قدوم الربيع ، يسمعون طنين النحل، يطير فوق الازهار في الحقول ، مجددا ، امام العيون ، معاني الخصب والنماء ، ويبدو للعيون ، ساعة العصارى الطرية ، دخان ازرق غامق ، يختلط بنسمات الهواء الباردة ، التي تحمل رائحة الشتاء ، خارجا من نار اوقدها احدهم ، امام خصة لعمل الشاي ، او اشعال نار لشرب الجوزه .

وفي المساء يعودون الى منازلهم ، او الى الجامع ، او للجلوس

على المصاطب ، يتحدثون ، كلمات موشاة بالوسن في هذا الجـــو البارد . في يومنا هذا ، عاد الرجال ، ساعة العصارى ، وكل منهم يشغله ما سمعه من الراديو عصر اليوم ، والرجال هنا ، لا يقدرون على مجابهة الامور البعيدة عن نطاق حياتهم بمفردهم ، انهم يلوكون المعاني في اذهانهم ، ويستبقون الافكار والصور حتى يجتمع الشمل في المسجد ، او على المصاطب ، كي يناقشوا معا ، كل الامور .

« ان مجموعة من طائرات العدو ، قامت بالاغارة في الصبـاح على مصنع » . وفي لحظة سماع كل منهم النبأ من الراديو ، او من الجيران ، وقف قليلا ، واستراحت نظراته المتعبة الصبورة فـي سماء فبراير الداكنة الزرقة ، فوجد ان كل ما حوله يناديه بالصبر، صبر أيوبي طويل . وماذا يستطيع هو ان يفعل ؟ لا يعلق عـــلى ما سمعه ، يستأنف كل منهم عمله . تعبر ذهنه فكرة محددة عـــن الموت ، وقد يتذكر ان مقبرة العائلة لم تجدد منذ زمن طويل ، وانه لم يصلّ الصبح ولا الظهر ، غير انه ، في نهـــاية الامر ، يمسك فاسه ، يجفف العرق الشتوي البارد على جبهته ، ثم يرجىء التفكير في هذا الامر ، حتى يعود الى البلد .

في الباحة الواسعة ، امـــام المسجد ، او في عشة ثعلب ، يجتمع الرجال ، يشربون الشاي ، يدخنون المعسل ، مشتركين في ثمنه ، مستمعين الى نشرة الاخبار ، والى حديث اهل العلم مـــن رجال البلد ، حيث يقدمون تفسيرا كاملا لما حدث لمصر الفاليـــة ، هذا الصباح .

في ليلة الجمعة ، من كل اسبوع ، تضاء مئذنة سيدي احمد عبد الله النشابي ، بالنور ، حتى منتصف الليل ، او ربما حتـى الصباح . ويكثر ذهاب حاملي النذور الى مقام الجامع ، نســوة وصبيانا ، تحققت احلامهم الباهتة ، فاتوا يفون بالوعود ، وفي هذه الليلة ، يكثر الزحام عند الحلاق ، وأمام الدكاكين ، فهـــذه ليلة مبروكـة .

عاد المرسي الى البلد ، ككل الرجـــال ، وتفكيره موزع بين امرين . اولهما ، ان عيد الاضحى المبارك يوم الاثنين ، باق عليـه ثلاثة ايام فقط . وقدوم العيد معناه التفكير في شراء ملابس جديدة لاولاده ، وشراء لحوم العيد ، فذبح الضحية ترف لا يقدر عليـه الا الاغنياء . ومعناه ايضا ، ان يدبر نقودا كي يعطي ابناءه وابنـــاء اقربائه مصروفهم في يوم العيد . وكان الامر الثاني ، هو ما سمعه المرسي عن ضرب مصنع أبو زعبل .

المرسي في طريق عودته الى البلد . انه يمر الآن عـلى مدافن القبط . حملت اليه الريح صوت الشيخ محمود ، من فوق مئذنـة الجامع ، تناهت اليه الكلمات ، حاول ان يلتقطها ، غير ان الريـح بعثرت بقيتها . ولكنه ادرك ما كان يقال من فوق مئذنة الجامع :

ـ يا اشرف من سئل ، ويا أكرم من أجاب .

توجه المرسي الى الجامع . توضأ . حمل بلغته ، دخل الـى صحن الجامع . وقف متجها الى القبلة « وهو مصنع مدني في منطقة أبي زعبل » سمعها وهو يقف في الصف . استمع الى الفاتحـة . آيات من القرآن الكريم . ركع ، سجد . جلس يختم الصلاة . وقام الى ضريح سيدي احمد النشابي . قرأ الفـــاتحة . وفي صحن الجامع ، وكان الظلام قد حل ، سمع الرجال يسألون الشيخ محمود عما سمعوه .

« واعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل » .

قال الشيخ محمود ، وهو مغمض العينين ، رافعا رأسـه الى سقف الجامع ، ويده تعبث بحبات المسبحة . المرسي حائر . هبت عليه في صحن الجامع نسمة هواء شتوية ، فاحس بالشوق لحجرة نومه الدافئة ، ولزوجته . غير انه كان يود ان يسمع الكثير .

جلس الرجال في دائرة حـــول الشيخ محمود . وكان الشيخ محمود يحكي حكايا قديمة والجميع ينصتون اليه . وكانت النســوة داخلات خارجات ، يضعن النذور في صندوق بجانب المقام . نذور نذرنها في أيام كرب وضيق ، ثم أتى الفرج ، وكان لا بد من الوفاء بالوعود .

أمام المسجد ، سوّى جلبابه ، ركـــب مداســه ، بصق علـــى الارض ، وسار في الطريق الى منزله . في الظلام الشتوي الدسم. كان التماع العيون يشق ظلام الليل . على باب حارتهم ، وقف قليلا ، واضعا يديه في فتحة جلبابه ، يرد الســـلام على المارين ، ويعزم عليهم ، وابنه الصغير ، يقف بين قدميه ، لا يظهر من الارض ، يحرك يديه ورأسه ، حركات عفوية .

« أبويا جه .. أبويا جه .. » .

ذهب المرسي ، هذا المساء ، الى المسجد ، وهو يأمل ان يجد عند الشيخ محمود ، حلا لكل الاشيـــاء التي يقف امامها عاجزا . غير انه ، ككل المرات السابقة ، وهي كثيرة ، ذهب ، صلّى ، لفّ حول المقام ، مر بيده على سترة الشيخ ، ثم مسح بها صـــــدره وجبهته . وقرأ الفاتحة . سأل . سمع الاجابة على سؤاله . وخرج، وفي ذهنه شيء ما لم يكتمـــل ، فهم ناقص ، احساس لا اسم له البتة ، وكان هذا معناه ان يؤجل هذا الموضوع ، ان يرجأ ، ثم يعلوه مع الايام غبار ، يبدأ الغبار بسيطا ، ثم يتكاثف ، ويتكاثف .

احيانا ، كان ما يتردد في ذهن المرسي ، ليس فتوى دينيـة ، ولكنه كان يعتقد منذ الصغر ، ان الشيخ محمود لا بد وان يعلم كل شيء ، وان هذا المسجد ليس مئذنة تشق الفراغ امام ناظره ، بل هو مكان يلجأ اليه كل الناس وقت الشدة .

وفي منزله ، جلس في المندرة . فوق الحصيرة ، وضعت له زوجته مسندا خلف ظهره ، جلس أحد أبنائه في حجره ، سأل عن اولاده ، قام الى الزريبة ، واطمأن بنفسه على مواشيه . ثم عاد . وكان طعام العشاء فوق الطبلية . جلس بين اولاده وزوجته ، وكانت زوجته تستعد لعمل الشاي له ، ثم تأكل فيما بعد . كانت تضـــع الكوالح في المنقد .

ـ انا عايز كراسة وقلم رصاص يابا .

يهمهم المرسي بكلمات غير مفهومة ، لا يرد . يشرب الشـاي ، يشربه بسرعة كي يخرج ، وهو يفكر في بيع كيلة ذرة في سويقة يوم السبت ، كي يصرف من ثمنها في العيد .

ـ انت مالك يا سي المرسي .

قالتها زوجته وهو يهم بالخروج . وفي الخارج ، صلى العشاء في المسجد . ذهب الى العشة . جلس ، وهو يترنم ، لنفسه ، وفي صوت واطىء ، بمقطع من موال حزين عن الادهم ، بطل الناحيـــة كلها ، وحبيب قلبه . وتزحف حكاية الادهم في صدره كأنين موجع ، كأسي ينسال قطرة ، قطرة . فيدرك المرسي ، اننا جميعا راحلون ، مسافرون في رحم الليل ، الى بلاد الغربة والحزن .

سألوه ، في العش ، عن حاله ، وهم يدخنـــون . ابتسم ، عزا سوء الحال الى برودة الجو . شرب الشاي ، نفخ بفمه بخـار الشاي الابيض ، فانداح في المسافة بينه وبين رفقة السهر .

ـ دا تلاقى اللي ماتوا في المصنع متين واحد .

انسالت بقية التعليقات ، وكانت في أياديهم جريدة يومية ، غير ان اخبارها كانت تتناول امورا اخرى . أيبان يقترح وقف اطلاق النار في القناة . اميركا غاضبة بسبب العمليات العسكرية المصرية . المشاة تعبر وتدمر ، والطائرات تدك مواقع العدو . من الراديـــو الموضوع في مكان مرتفع ، تنساب اغنية خليعة ترقص احد الرجال بجسمه على انغامها ، وهو يدخن الجوزة . انعقدت سحابات الدخان في جو العش ، واختلطت ببخار الشاي الابيض . مد مرسي يده ، من فتحة صغيرة خارج العش ، فلفحته نسمة شتوية باردة ، فقرر الخروج . وفي الخارج ، في الشارع الرئيسي في الضهرية ، كان الليل والظلام والنجوم والسماء الداكنة السواد . ولا يدري المرسي

لم فكر ، في اعماق الظلام ، في حروف اللغة التي تعلمها في الزمان القديم ، قبل ان يمنعه والده من الذهاب الى المدرسة ، كي يساعده في الحقل . أدرك انه لا يذكر سوى حرف ، او حرفين . وقف ، ضيق عينيه ، وغير ملامح وجهه ، ورفع يده الى خده ، في محاولة للتذكر ، غير انه ادرك انه مغروز في طين الضهرية حتى قامته .

ـ لا بد من الصدام المسلح مع اسرائيل .

ـ دي حتمية .

توقف المرسي ، مر به اثنان من شباب المدارس ، لم يتبينا ملامحهما في الظلام . أدار كلامهما في ذهنه ، وراح يتذكر ما سمعه بين قرقرة الجوزة ، ومصمصات شرب الشاي في العش . وفجأة ، وجد ذهنه يتجه الى ابنه الاكبر ، التلميذ في المدرسة الاعدادية ، وجد نفسه ينسى كل شيء ، كل ما شغل ذهنه هذه الليلة ، ويرسم لهذا الابن مستقبله . ويدرك ، بذهنه البسيط ، ان كل شيء لم يذهب هباء ، وان هناك ، في الدنيا الواسعة ، اشياء تبلغ حد الروعة ، لم يعشها بعد ، تعطيه الامل في ان يواصل الحياة ، من اجل هذا الابن ، يتراكم الحزن والعناد والتصميم في بئر القلب ، طبقات فوق طبقات .

ـ ربنا يعوض صبر السنتين خير .

قال المرسي ، ولكن لنفسه .

وعلى باب منزله ، بمجرد ان فتحته زوجته ، اندفعت موجة باردة من فتحة الباب ، ودخل . كانت زوجته تقف في وسط الدار ، بيدها لمبة جاز ، ولمع في وسط الدار ليفة وصابونة ، وغيارا جديدا له .

ـ انت غبت ليه الليلة ؟

قالت زوجته بحروف ممطوطة ، وبكلمات انثوية لينة . غير انه لوى بوزه ، ولم يرد عليها ، واتجه الى الزريبة ، وهناك افعى وسط مواشيه ، وتبول . ثم عاد الى حجرة نومهم ، حيث ينام الجميع . ان المرسي يخلع ملابسه الآن ، كي يلبس الجلباب الذي ينام به على اللحم .

الايام تمضي بالمرسي ، يزرع ، يقلع ، ينام ، يحلم بالليل ، ببلاد مفسولة بالحنين . وفي الصباح ، يصحو على واقع ايامه ، ويغمس في التراب خبزه ، وفي المساء ، في لحظة الغسق الشجية ، يقلع الدموع من جذورها .

« وفي برقية لوكالة الانباء الفرنسية » .

كان يأتيه هذا الصوت الواهن من راديو .

« على مصنع الشركة الاهلية للصناعات المعدنية » .

وكان الراديو في منزل بعيد عن منزله . حاول المرسي ان يحدد مكانه ، وبعد قليل ، بعد اجراء بعض حسابات مشوشة في ذهنه ، أدرك ان الصوت المتسلل الى حجرة نومه ، انما يأتيه من راديو في دكان عبده البقال .

* * *

٢ ـ جمهرة الرجال

« ان هذه الغارة التي شنتها اسرائيل على المصنع المدني ، وقصفته بالرشاشات والنابالم ، تعتبر استمرارا خطيرا ، في تصعيد اسرائيل لعملياتها الحربية ، لتشمل كل الاهداف المدنية والمدنيين » .

(من بيان المتحدث الرسمي)

المساء ، وقمر الليلة السادسة من الشهر العربي ، هلال صغير ، خط من اللون الرمادي المشبع بحمرة قانية ، عند الافق البعيد ، وسط السماء الداكنة . الاشجار تتمايل مع هبات النسيم . رائحة الدفء تشع من البيوت والناس . تقفز الجواري ، تملىء ، وتمر فتاة صغيرة ، تحمل مقطفا ملوثا ، تجمع فيه ، رغم البرد والهواء المشبع برطوبة المساء ، روث المواشي المتجمع في الحارات .

النور امام عشة تعلب مستطيل الشكل ، يقسم الشارع نصفين. فجاة يظهر الناس من الظلام ، تتضح ملامحهم في النور ، يفتحون عيونهم ، تتسع الاحداق ، تحدق في مصدر النور ، ثم يمضون ، وبنفس الطريقة التي ظهروا بها ، يبتلعهم الظلام مرة اخرى . فلا يدري أحد اين ذهبوا ، ولو حدق احد الجالسين في داخل العشة ، بعينيه ، محاولا ان يتتبع احد ما ، لما استطاع ، داخل الظلام ، ان يميز أي شيء .

وفي خارج العشة ، في الحارة الطويلة الملتوية ، يختلط الظلام بلسعات البرد ، فيكونان شيئا واحدا .

ان عشة تعلب هذا المساء ، مزدحمة بالرجال ، ليلة الجمعة ، وكل الرجال يودون ان يسهروا حتى منتصف الليل ، يشربون الجوزة ، يصعد الدخان حتى النافوخ ، يشعر الرجل بدوار لذيذ ، تسرح النظرات مع الدخان الازرق الغامق عندما تسبح طيانه بجوار الكلوب المتوهج ، وبعد الكرسي الثالث يصيب الجسم خمود ، وترتخي الاعصاب ، ويتفكك عظم الجسم ، وتخرج الكلمات بغير ما ارادة من احد . لينة ، مسترخية ، كسولة . ويرفع الرجل يده ، ثم يحاول ان يطبق اصابع يده ، فتصيبه رعشة ، تتقارب الاشياء ، تتباعد ، وتهب نسمة ليلية ، من جوف مساحات الظلام ، فتصل الى الانوف طرية باردة .

يجلس الغريب في وسط الرجال (اسمه الحقيقي زين العابدين ، اسماه الناس مرة بالمهاجر ، واخرى بالغريب ، وهو من اهل القنال ، هاجر بعد حرب الخامس من يونيو سنة ١٩٦٧ ، واستقر مع جماعته ـ أولاده وزوجته وامه الكبيرة ـ في الضهرية) .

عندما يتحدث الغريب ، بصوته الرفيع ، ولهجته المميزة ، فان الكل يدرك ان لحديثه هو بالذات ، وقعا خاصا ، ومعنى خاصا . لقد خالطهم الغريب منذ عامين في حياتهم ، اصبح جزءا من اهل البلد ، غير انه هو ، لم يصبح جزءا من البلد ، كانت له حياته الخاصة ، ذكرياته ، ماضيه ، بلده التي هاجرها منذ عامين ، طعامه ، ثم ذلك الحنين اللاذع في الاعماق للعودة الى بلده .

وفي عش تعلب ، يتناولون كل شيء بالحديث ، كل ما يطفو على سطح الحياة اليومية في الضهرية ، كل الاشياء التي تحاول ان تخدش رتابة الحياة ولامبالاتها ، والحديث في عشة تعلب ، اصبح عادة محببة لكل الرجال ، لدرجة ان كل رجل ، وهو يعيش حياته العادية ، يسير في حواري البلد ، او شارعها الرئيسي ، وهو يصلي في المسجد ، او يعمل في الحقل ، فان كل ما يشاهده ، يختزنه في ذهنه ، يؤجله لحين لقائه مع اصدقاء الليل ، في العشة ، كي يحكيه لهم .

وفي كل ليلة ، يتحدثون عن الجمعية التعاونية ، ودور الري ، وأثمان المواشي في السوق ، وقصص الغرام والخصومات ، ومواعيد الصلح بين المتنازعين ، وبين الحديث والصمت ، تدور الجوزة بينهم ، صامتة ، لا تعلق على أي شيء ، ولا تدلي برأيها في أي امر من الامور ، بل هي المنصت الوحيد في كل ليلة ، لكل ما يقال في العشة .

ـ انما ابو زعبل دي فين يا اولاد ؟

وعند سماعهم السؤال ، رفع بعضهم يده الى رأسه ، وفكر قليلا ، وراح يتذكر ، يستخرج الصور الضبابية من قاع عقله المعتم ، وتساءل : هل زار هذه البلدة من قبل ، هل له فيها اقارب ، ومن

الضهرية ، اناس رحلوا عنها ، تركوها ، وسافروا الى البنادر ، عملوا في المصانع ، وهناك حلقوا شواربهم ، ونعموا ذقونهم ، وساووا شعر الرأس ، وألقوا بكلمات الغزل الخجولة على اولئك الفتيات التاعسات عند نواصي الشوارع ، تحت أعمدة النور في الليل الشتائي البارد . والبنادر التي دخلت حياة الضهرية كثيرة . كفر الدوار ، كفر الزيات ، دمنهور ، الاسكندرية ، طنطا حيث سيدنا السيد احمد البدوي . دسوق ـ شيء لله يا سيدي ابراهيم يا دسوقي . هكذا يقول الناس عند سماعهم اسم دسوق . اما ابو زعبل هذه ..

ـ دي فيها السراية الصفرا .

فتذكروا جميعا ، انهم في الزمان القديم ، بالتحديد في السنة التي باعوا فيها قنطار القطن بخمسين جنيها ، في هذه السنة ، ارسلت من الضهرية ، زوجة شيخ البلد ، التي اصابها مس ، وقالوا ان النداهة نادتها ، وخرجت بها ، لتريها ابنها البكر الغائب ، وذهبت بها في الليل الى شاطىء النيل ، ثم تركتها على الشاطىء تماما ، وقد كانت تتأهب للنزول بها الى قاع البحر ، وقالوا انها تركتها وهربت ، لانها سمعت رجالا قادمين على جسر البحر .

ـ لا ، دي راحت الخانكه .

ـ كلامه صحيح ، دا انا يوميها سألت سواق العربية اللي خدتها.

ولم تطل حيرتهم ، اذ قال الغريب :

ـ على العموم ، ابو زعبل دي ، على خط المترو بتاع حلوان .

وصدق على كلامه شاب من أهل البلد ، سبق ان عاش في مصر ، ام الدنيا ، فترة تجنيده بالجيش ، وعاد بعد ثلاث سنوات من هناك ، وفي يده ساعة ، وفي جيب جلبابه نظارة ، يقسم انها من العريش ، بثمانية جنيهات مصرية . وفي القلب منه قصة حب قديمة ، ويتحدث احيانا ، وهو في الحقل ، بعيدا عن البلد ، كما يتحدث اهل البندر في مصر والاسكندرية .

ـ لا يا راجل ، انا افتكرت ، دي على خط كوبري الليمون .

رانت عليهم فترة صمت ، وأدرك بعضهم ، وقد يكون له الحق في ذلك ، ان مصر ، التي يسمونها في الراديو ، ولسبب ما ، القاهرة ، شيء لا وجود له بالنسبة لخريطة حياتهم ، وان ابو زعبل هذه ، وان كانت جزءا من مصر الغالية ، فانهم لا يدركون بشكل قاطع معنى ما حدث ، وانهم جميعا يدركون ، في هذه اللحظة ، ان قاموس حياتهم دخلته كلمة جديدة تماما ، مثل كلمات العائدين من البنادر ، او تلاميذ المدارس ، او نداءات باعة الصحف والمجلات في التوفيقية وكفر الزيات .

قام احدهم من مكانه ، ووقف في منتصف العشة تماما ، رفع يده كأنه سيخطب فيهم خطبة طويلة ، وتصور بعضهم انه يستعد للذهاب الى منزله مبكرا ، ولكنه بعد ان وقف ، وتطلعت اليه عيون الجالسين ، قبدا لهم طويلا لحد السماء ، أقسم لهم بالطلاق ثلاثة ، شافعي ومالكي وابو حنيفة ، وبصوت عال ، ان ابو زعبل هذه ، فيها سجن كبير ، اكبر من سجن المديرية في دمنهور الف مرة ، وانه ذهب اليه ، لزيارة قريب له هناك ، كان محكوما عليه بالسجن ، وانه شاهد المصنع بنفسه ، ومما يذكره الآن ، ولا يمكن ان ينساه ، انه اشعل سيجارته ، من احد العمال ، عمال المصنع الذي ضرب اليوم ، لعدم وجود كبريت معه ، وانه قال للعامل « تشكر يا اخ » ورفع يده الى جبهته ، فرد عليه العامل ، رافعا يده هو الآخر ، « ايها خدمة يا بلدية » .

وقرر كل منهم لنفسه ، كل بطريقته الخاصة ، ان العالم واسع وكبير ومليء بكافة الاشياء التي لم يعيشوها بعد ، غير ان الامور قد تغيرت تماما ، وسرى بين الجميع حماس جديد ، عندما قال شاب صغير ، ان احمد اسماعيل ، يعمل في هذا المصنع .

ـ مصنع الشركة الاهلية للصناعات المعدنية .

ـ وهو مصنع مدني في منطقة ابو زعبل .

قال الشاب الصغير .

تمتم احدهم « ربنا يرحمه » غير ان الجميع اسكته « قال الله ولا فالك » .

وراح كل واحد فيهم يذكر آخر مرة رآه فيها ، وآخر مرة سمع صوته ، وآخر مرة زار احمد اسماعيل البلد ، واقسم احدهم بالمصحف الشريف ، ان احمد اسماعيل ، في آخر مرة زار فيها الضهرية ، كان يفكر في بناء مقبرة لعائلته في الضهرية ، خوفا من ان يدفن في بلاد الغربة ، وان احمد اسماعيل ، نظر يومها ناحية المقابر ، وقال ان من يريد ان يبني عليه بدار البقاء هناك ، واشار بيده ناحية المقابر ، عليه بدار الخلود . فكل شيء زائل ، ولا دائم الا وجه الله .

دارت مناقشات ، تحول الجمع بين مصدق ومكذب ، واقسم احد الغفراء ، ان احمد اسماعيل يعمل في مصنع شبرا الخيمة ، وان شبرا الخيمة تبع زمام بنها .

ـ انما الضرب كان بطيارة فانتوم .

ـ ربنا يهدهم .

وتذكروا ان هناك طائرة ، تعبر سماء البلد في منتصف الليل ، واخرى عند الفجر . فسرت في ابدانهم قشعريرة ، ووقف لها شعر الرؤوس ، وتذكر كل فلاح فيهم ، انه بمجرد ان تمر طائرة فوق رأسه ، تطعن الفراغ العذب ، يقف مستندا على فأسه ، ويرفع رأسه ، ناظرا اليها . وتذكروا ايضا ، انه لا يوجد عندهم ولا اقدس من السماء ، وانهم دائما ، خاصة في الاوقات العصيبة ، يرفعون أكفهم اليها ، ويهتفون ، بعيون مغسولة بالاسى ، بكلمات راعشة من القلب .

تذكروا هذا ، فتعجبوا ، لم يتكلم أحد منهم ، كانت المسألة صعبة بالنسبة لهم ، كيف تصبح السماء ، ذلك الفضاء الازرق الهادىء ، مكانا يأتي منه الموت والمجهول ، وتأتي منه ايضا الرحمة والعطاء وكل الخيرات . وعندما عجزوا عن الاجابة على هذا التساؤل ، مصمصت شفاههم ، واستسلموا ، وقال الرجال لانفسهم ، دونما كلمات ، بل وباحساس ساذج ، مجدول من ايامهم الجديبة ، واحلامهم التي بلون التراب ، ليرحمنا الله ، فان هذا زمان عصيب .

الليل يتقدم ، والغريب يستريح في جلسته ، يتحدث بصوت هامس ، عن الغارات ، يشرح لهم معنى ان تكون هناك غارة ، في مكان ما ، معنى ان تهدم البيوت ، ان يفضح سرها ، ان تتحول غرف النوم ، والجلوس ، الى اشياء مستباحة ، ان تبدو الجدران الداخلية للبيوت ، بعد الهدم ، بكل ما تحمله من طابع الحياة البيتية ، سناجا اسود على الجدران ، عبارات صغيرة ، دونها الاطفال بعد ذهابهم الى المدارس الابتدائية ، رسوما ساذجة ، معنى ان تفقد المدنية مبرر وجودها ، ان يقتل الرجال ، يموت الاطفال والنساء والشيوخ في لمح البصر ، في أقل من ومضة عين ، وبمجرد ان تعلن صفارة الانذار بدء الغارة ، يبدأ منطق جديد تماما ، شكل آخر من اشكال الحياة ، الجري ، اطفاء النور ، الفزع في العيون ، اختفاء علاقات الناس ببعضهم البعض ، فقدان الاشياء احجامها الطبيعية ، ويحاول كل فرد ، في نهاية الامر ، ان ينجو بجلده .

تداخلت الامور ، تركت كلمات الغريب في الصدور ، احساسا سائلا بالحزن ، وفي آخر الليل ، تحدثوا عن امور اخرى ، ودارت بهم الكلمات ، وكان تعلب ، خلال هذا الوقت ، يدور بينهم بسرعة ، وتعلب يعمل بالنهار في اعمال مختلفة ، سمكري ، يؤجر دراجات

لتلاميذ المدارس ، يطلي البيوت بألوان مختلفة ، ويكتب على واجهاتها عبارات من عنده ، ويرسم اشكالا حلوة ، ولكنه رغم كل هذه الاعمال، ومهما كان عمله بالنهار ، فما ان يأتي الليل ، حتى يشعل الكلوب ، ويحمله الى عشته ، ويستعد للسهر ، ويقول اهل البلد ، ان سهره في العش ليس من اجل الكسب ، بقدر ما هو مزاج خاص ، فهو ليس فلاحا ، وانما هو ابن مزاج ، وهذا هو سبب مواظبته على السهر في العش ، ان تعلب يعرف كل اسرار البلد ، كل حكاياتها الصغيرة. وهو لم يتزوج ، ولا يفكر في الزواج ، رغم كل ما يقال عنه من حكايات بسبب عدم زواجه .

خرج الغريب من العش ، وفي الشارع ، كان الليل والسماء والنجوم . رفع عينيه ناحية السماء ، ادرك انه تفصله عن بلده سبعة بلاد وسبعة بحور وسبع سنين عجاف من الترحال والسفر . وهو في الطريق الى المنزل ، توقف لشراء عشاء اولاده ، وتمثلت له ايامه ، مكاتب التهجير ، مرتبات المهجرين من المحافظة ، وشعر بحنين يلذعه في اعماقه لبلده ، البحر وأكل السمك بالارز المفلفل ، دفء المقاهي الليلية ، في ليالي الشتاء ، المثقلة ببخار الشاي ودخان الجوزة . صوت النرد والدومينو واوراق الكوتشينة . مكسب كل يوم ، وانفاق كل ما يأتي به البحر يوميا . اللعب في المقهى حتى الثانية صباحا . البحر والصيد والجنيات والملابس المبتلة ، ورائحة السمك والشباك العالق بها قشر السمك ، ثم الحياة في الضهرية بدون عمل ، حيث يتساوى الغريب بزوجته ، النوم ليلا في منزل غريب مؤجر ، لا يحس الغريب بداخله ، بتلك الالفة التي يشعر بها الانسان في منزله ، تلك العلاقة الخفية التي تربطه بالاشياء التي تكوّن المنزل ، الجدران والاثاث والارض والسقف ، الجلوس في الضحى امام داره وقد ذبلت عيناه من الوسن . في الصباح ، ينتظر ان ينتصف النهار ، وعند الظهر ، يتلهف على قدوم الليل . وفي الليل ، يكون اللجوء الى السرير مبكرا امرا له خطورته .

حمل الغريب طعام اولاده ، عاد الى منزله في آخر البلد ، وفي صدره كان الحنين يكويه الى بلده ، وعلى طرف لسانه ، انزلقت كلمات رتيبة ، مملة ، همس . ان الديار البعيدة ، المنصبة ، قد اشتاقت الى اهلها .

وفي آخر الليل ، قام تعلب ، عدّ نقوده ، دلق مياه الجوزة ، لم عدة الشاي ، أطفأ النيران والكلوب . وكانت حكايات هذه الليلة، الشهداء ، مراهنات الرجال عن ابي زعبل ، الطائرات ، سماء الله العالية ، كل هذا ، كان يعني بالنسبة اليه ، ان ما شربه زبائن عشته ، هذه الليلة ، اكثر من مشاريب اية ليلة اخرى . وبهذه العلامة فقط ، سيظل يذكر هذه الليلة لايام قادمة . وقبل ان ينهي كل اعماله ، عدّ الحساب الشكك عند زبائنه .

ــ وآدي نومة .

ثم استعد للنوم ، وعندما وقف تماما ، ومدّ ظهره ، ووضع يده على سلسلة ظهره في المنتصف تماما ، شعر بالآلام في عظام ظهره . رفع عينيه نحو السماء ، فادرك ان الليل ، ليل الريف ، ليل الشتاء الطويل ، ذلك الليل المشبع برائحة الرطوبة وأريج اختمار الارض ، ذلك الليل ، ينتصف الآن .

* * *

٣ ـ البروجي يعزف نوبة وداع

« ان القارة الجديدة ، تكشف بوضوح، وتبرز بشكل قاطع ، امام عمال العالم ، جميع الاهداف الحقيقية للامبريالية الاميركية » .

(من بيان وزير العمل)

شهر امشير ، الذي يقول عنه الناس هنا ، لبعضهم البعض ، « بكره بيجي لك امشير ، بخلي عظمك على الكوم كسير » ، يغطي برده اطراف المنطقة .

وعند انتصاف الليل ، يدرك وهدان ، شيخ غفراء البلد ، انه قد وصل الى منتصف رحلته ، نصف مسافة الترحال ، سفر كل ليلة ، حيث لا امل في الرجوع ، وشاطيء الوصول ، حيث الحنين والاشواق والاسى ، الاهل والاحباب ، يبدو بعيدا ، بعيدا .

في الليل ، يبتلع شيخ الغفراء المسافات الطوال ، ويطوي في حناياه الاميال ، ويسافر على جناح الحزن الى قبر الحبيب الغالي . العلامة ، حجرة صغيرة مدفونة في الارض ، هنا قبر الشهيد ، استشهد في معركة ، بتاريخ ، بناحية . ويعود مسرعا ، على انغام نوبة الوداع ، وكلمات العزاء . وصورة الاخ الحبيب ، ذكرياته ، صورته ، اشياؤه الصغيرة .

في غرفة السلاحليك ، وهو يشرف على تسليم الغفر البنادق ، اخبره كاتب التليفون بالامر كله .

ــ والله حرام يا شيخ الغفر ، ابو زعبل مرة واحدة . هيه الناس ذنبها ايه .

وقال الكاتب كلاما آخر ، لا يذكره شيخ الغفراء ، عن غارات العمق ، وأهدافها السياسية ، وانها وسيلة ضغط لا اكثر ولا اقل ، وان هذه اول مرة تضرب مناطق في داخل مصر بهذا الشكل ، واننا لن نسكت على هذا مهما حدث .

لم يعلق عليه بكلمة واحدة . استراحت الكلمات بينهما ، ذهب الى منزله ، ثم عاد بعد قليل كي يمر على الدركات . ويعود لتناول عشائه ، وهدان يخرج من منزله ، يمسح حارات البلد ، وشارعها الرئيسي بخطوات لينة بطيئة ، يمس الارض من تحته مسا رقيقا ، ينبه على غفرائه بكلمات كل ليلة ان يكونوا يقظين ، فلا أحد يعرف ما يحمله الليل لهم .

يعود وهدان الى منزله ، يجتمع الشمل ، بعد يوم من العمل في الحقول ، يجلسون حول الطبلية ، يأكلون . ينظر وهدان الى ابنائه . منذ ان مات الحبيب الغالي ، وهو اكثر احساسا باولاده ، بقيمة كل منهم ، بمعنى ان يمرض ، ان يقول في الليل آه ، معلنا عن ألمه .

القاهرة ، صادر في / / . اذا لم يصل يرد الى الثاني، ادارة ... التابعة لوزارة الحربية . السيد وهدان عبد السميع عبد الله . الضهرية . مركز ايتاي البارود . مكتب بريد التوفيقية ، محافظة البحيرة .

قالوا له ، وكان الوقت ساعة الضحى ، ان على الباب اناسا غرباء يسألون عنه . خرج ، وكان يرتدي قميصا قصيرا على اللحم ، حيث كان يستعد للنوم ، خرج عاري الراس ، حافي القدمين ، ومن عينيه تطل نظرة مستطلعة دهشة . وعلى الباب ، كان هناك ضابط ، ومعه رجل آخر .

ــ لا مؤاخذة يا افندم .

دخل وهدان بسرعة الى منزله ، كي يرتدي ملابسه ، فلا بد وان الضابط يحتاجه في عمل رسمي . وفي داخل المنزل ، حاول ان يرتدي ملابسه بسرعة ، غير انه فوجيء بالضابط يدخل عليه .

ــ احنا عايزينك في موضوع خصوصي .

وسط الدار ، خلع كابه ، جلس على الحصيرة ، بعد ان خلع حذاءه الاسود . وهدان يحلف عليه ان هذا لا يصح ، يحضر مفتاحا يفتح به المندرة ، يفتح نوافذها ، يدخلون ، يشمون رائحة عفنة ، رائحة هواء راكد اختلط برائحة الطوب والجدران والارضية التي لم تكنس منذ زمان مضى .

ـ اهلا وسهلا .
يجلس الضابط .
ـ ازيك يا شيخ وهدان .
تقال كلمات جافة ، لا تقترب بين الناس في مثل هذه المواقف ، بل انها تقال لتبديد وحشة الصمت ، الصمت الزاخر الناتج عن لقاء الناس للمرة الاولى .
ـ والله احنا جايين بخصوص فؤاد ، اخوك الصغير .
رمشت عيناه في دهشة ممزوجة بنوع من الخوف ، رفع عينيه نحو الضابط ، واستعجل الشاي من الداخل .
ـ خير ان شاء الله .
ـ كله خير يا حاج .
اخبره الضابط الامر ، ثم وقف ، واخرج من جيبه مبلغا من المال واخرج خطابا صغيرا ناعم الملمس ، وطلب منه التوقيع على ورقة معه باستلام مبلغ ، وان يوقع مرة اخرى باستلام الخطاب الخاص باخيه فؤاد ، كتب اسمه مرتين بحروف متآكلة ، وضع المبلغ في جيبه ، واطبق يده بقوة على الخطاب الصغير .
ـ البقية في حياتك ، شد حيلك .
ـ حياتك الباقية ، الشدة بالله .

خيل اليه ، ان كلمات الضابط تصل اليه من بعيد ، او من خلال تليفون العمدة . كانت الكلمات خافتة ، على الرغم من ان الضابط كان يفتح فمه امام عينيه على اتساعه الكامل ، وميز منها كلمات عن مصر ، وحتمية المعركة ، وان النصر في هذه المعركة هو الممكن الوحيد ، وان مصر الغالية في حاجة الى رجالها ، في هذا الوقت بالذات .
ـ طيب السلامو عليكو .
مد يده لهم ، خرج معهم حتى آخر الحارة ، وفي آخر الشارع الرئيسي ودعهم . وضع على شفتيه ابتسامة مرة . ورأى وهدان وهو في وقفته ، ظل يده المرفوعة يتموج على الارض المبلطة في ليونة سائلة . ان وهدان يعود الآن الى منزله ، في جيبه المبلغ ، وفي يده الخطاب وقد تلوثت اوراقه ، وجلس في المندرة .
ـ همه كانوا ـ قالت زوجته ـ عايزين ايه يا ابو فؤاد .
ما كان فؤاد ابنه ، بل أخيه الصغير ، ولكنه كان أحب اليه من ابنائه ، وكان فؤاد نفسه لا يناديه الا « بيابا » ، فهو نفسه لا يعرف له والدا سواه . كانت زوجته تقف على باب المندرة . وقف وهدان ، وقد استراح المعنى الطارىء في نفسه ، واستدار ، واخذ لنفسه شكلا محددا ، خرج من باب المندرة ، واصبح في وسط داره ، كان بالحارة المواجهة له ، اطفال صغار ، تجمعوا بعد خروج الضيوف .
ـ فؤاد مات .
بعد التحية ، ينعي لكم السيد وزير الحربية ، استشهاد شقيقكم ، في معارك ، يوم ، بناحية . حديث زوجته ، نفرق الاطفال ، كل يود ان يحمل الخبر الحزين الى أهله . كما وانه نرجوكم التوجه الى ادارة ، بالعنوان الآتي ، لتسويه كافة مستحقاتكم .

وهدان يتناول طعامه الآن . ابنه يقول له آن مصنع ابو زعبل قد ضرب ، وانه قد استشهد سبعون عاملا . لم يرد عليه ، رفع عينيه ناحية جزء من السماء يبدو من ثقب صغير في وسط الدار ، غير انه كان يود ان يسأل ابنه ، ألم يكن من الممكن ان يحمل احد هؤلاء الشهداء رسالة الى فؤاد ، كلمة واحدة . ولكنهم ذهبوا ، ماتوا ، دون ان يودعوا الاهل والاحباب ، في غمضة عين ، في الصباح ، وتركوا الدموع ولوعة الفراق والاحزان . واشترك اولاده الصغار في مناقشة عن اسرائيل والحرب .

وفي اليوم التالي ، بعد العزاء والدموع والاحزان ، قرر ان يذهب الى مصر . قد يكون فؤاد هناك ، في مكان ما .
ـ ويمكن تكون غلطة في الاسم .

وسافر على جناح امل صغير ، سافر وترك الاهل والاحباب في الضهرية ، مكسوري القلوب . وعاد بعد يومين ، وهو لا يود ان يحكي قصته لاحد . وما كان يخيفه وهو في طريق عودته من مصر ، الا ان يتوه الاسم ، فؤاد عبد السميع عبد الله ، في زحمة الاسماء . ان يذوب مع اول قطرات المطر الشتائية ، ان تنام الجراح في القلوب ، ان تتوسط الحنايا . وفي مصر ، أم الدنيا ، يقسم وهدان لنفسه ، وليس لاحد سواه ، انه شاهد جنازة فؤاد ، وكان اهل مصر كلهم في الجنازة ، وكان هناك مندوب عن الرئيس . وهو غير متأكد من هذه النقطة ، قد يكون الرئيس بنفسه . سارت الجنازة ، جسد الحبيب فوق المدفع ، حوله علم مصر . والناس في حزن عظيم ، الخطوة الجنائزية الرتيبة ، الرجال يسيرون بنظام ، يقسم وهدان لنفسه ، في الليل ، انه سأل احد الرجال ، وكانوا مثل يوم الحشر ، عن صاحب هذه الجنازة ، فنظر له الرجل ، باستغراب شديد ، ولامه على انه لا يعرف صاحب الجنازة .

ـ دي جنازة الشهيد فؤاد عبد السميع عبد الله يا بلدية .
وفي النهاية ، عزف البروجي نوبة وداع . يقول وهدان ان جسمه قد أصابه قشعريرة ، وان شعر رأسه قد وقف ، عند سماعه نوبة الوداع ، وان الناس هتفوا ، تموت ونحيا مصر ، ثلاث مرات .
بعد عودته من مصر ، قرر ان يدفن فؤاد في قلبه ، ان يكفنه برموش العين ، لن يغسله ، فالشهداء أطهار ، ثم يدفنه في حبة القلب .

ذهب وهدان ذات صباح الى بناء البلد . اخذه معه الى الجزيرة ، اشترى ثوبا أحمر ورملا . وفي اليوم التالي ذهب الى كفر الزيات ، واشترى اسمنتا وجيرا ، ثم ذهب الى المقابر ، في الناحية القبلية ، حيث بنى مقبرة جديدة ، فرشها بالحناء ، بناها على مكان مرتفع . وعندما سأله الناس ، قال لهم ان هذا هو قبر المرحوم ، وانه وان كان قد دفن في مصر ، فان الملائكة ستحمله ذات ليلة الى هنا . واقسم لهم أن ذلك سيحدث ، وان فؤاد نفسه ـ يرحمه الله ـ قد أتى اليه في المنام ، وطلب منه ذلك . وقال لهم ان الشهداء مثل الانبياء واولياء الله الصالحين تماما .
ـ عليهم الصلاة والسلام .
وبعد ان طلى القبر بلون رمادي ، وزينه ، كتب عليه : كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ، هذا قبر الشهيد . ثم ترك القبر مفتوحا .
وفي الصباح ، كان وهدان يذهب الى حجرة التليفون ، يشرف بنفسه على تسليم البنادق ، يضعها في السلاحليك ، يوزع النوبتجيات على النفر ، يستقبل العمدة ، ثم يذهب الى المقابر ، يقف امام قبر فؤاد ، يرفع يديه ، يقرأ الفاتحة بصوت مسموع ، ثم يقبل كفيه ، ويمر بهما على وجهه وصدره ، وهو يتمتم بآيات من القرآن الكريم ، ثم ينظر داخل القبرة ، ويتراجع الى الوراء بظهره قليلا ، وينحني ويعاود النظر ، يتأكد ان القبر خال ، وان الجثة لم تحضر بعد . ويعود الى الضهرية .
الضحى ، نسمات الصباح الموشاة بالندى ، شمس الشتاء المبتلة بقطرات البرد ، وهدان يستعد للنوم . وتكون الحكاية قد وضحت في ذهنه ، تخلقت في كلمات محدودة ، ولكنه لم يقلها لاحد ، حتى ولا لزوجته او ابنائه الصغار . وفي الليالي ، يسافر على انغام نوبة الوداع ، ويعود الى الضهرية ، محمولا على الايادي التي قدمت له العزاء .

اسمه فؤاد عبد السميع ، من الضهرية ـ بحيرة . ولعلكم لا تعرفون الضهرية . سأدلكم . على الطريق الزراعي ، مصر اسكندرية الشهير . بالتحديد عند الكيلو ٩٦ ، ان كنت ذاهبا من مصر الى الاسكندرية . في التوفيقية . وبعدها تودع الاسفلت ، تتركه وراء ظهرك ، تتجه على طريق زراعي مترب ، واوصيك ان لا تنتظر

الاوتوبيس ، فالاوتوبيس في هذه الناحية ، لا يحضر الا كل ســـت ساعات . عليك بالسير على قدميك . وفي الطريق ، بعد ان تقـرأ الفاتحة لسيدي احمد الذكيري في كنيسة الضهرية ، ترتفع مـــن وسط الحقول مئذنة مسجد ، ونخلة ، وعامود تليفون ، ثم مبنـــى الوحدة المجمعة . وفي الضهرية ، في منزل وهدان عبد السميع ، شيخ الغفر ، في حجرة صغيرة ، مغلقة ، عششت بها العنـاكب ، ورسى على الاشياء فيها تراب الزمن ، ستجد ساعة يد ، بطـــاقة شخصية رفم ، أيتاي البارود ، احترق جزء منها ، ونقود قليـــلة ، ومنديل اصفر عليه نقاط من الـــــدم المتجمد ، خطابات ، حوالات بريدية ، شيك بمبلغ صغير ، رزمة من الاوراق النقدية ، تلك هي اشياء فؤاد عبد السميع ، حفظها أخوه ، في حجرته .

ثم سارت الحياة ، وسط موجة من الاحلام الغامضة ، والاماني المبهمة ، والمشروعات التي لن تتحقق ابداً . ان كل شيء ، حتـــى الامل ، يفقـــــد نضارته ، ويأتي ، مع مرور الايام والليالي ، سأم لذيذ ، قريب من اليأس ، ويلتصق بجلود الناس .

لحظة القيلولة ، وهدان في حقله ، نائم على ظهره ، انه يتمنى ان يصعد فوق شجرة التوت ، القائمة على رأس حقله ، عند مدار الساقية ، ويطل من فوقها ، على المساحات اللانهائية من الخضرة ، ثم يغوص فيها ، ويغوص الى ما لا نهاية .

في هذا المساء ، دار وهدان في البلد أكثر من مرة ، سمـــع حديث الناس عن شهداء ابي زعبل ، في أكثر من مكان ، فلسعتـــه ذكرى صغيرة ، نام في نفسه . تذكر ان فؤاد سافر آخر مرة الـــى مصر ، دون ان يراه ، دون ان يسلم عليه ، أن يقول له وداعاً ، وان فؤاد لم يعد بعدها الى الضهرية ابداً ، ولا حتى محمولا عـــلى الاعناق . وفي اثناء مروره على الغفر ، تحدث معهم في أمور كثيرة ، وانبسط معهم في الحديث ، وفي هذه الليلة ، كان صوت البروجي وهو يعزف نوبة الوداع ، يطن في اذنيه . وكانت صـــورة الحبيب الغالي ، تطل عليه من الغيب واضحة .

الضهرية تنام الآن ، والرجـــال في حجرات نومهم الصغيرة يحلمون ، يصنعون سفنا بلا أشرعة ، سيبحرون بها ، في الايـــام القادمة ، وبعد أن يفيض النيل ، الى بلاد بعيدة ، حيث سيجدون هناك ، كنوز الملك سليمان .

ان وهدان يجلس على مصطبة مستطيلة ، يجلس بجانبه أحد الخفراء ، يسأله عن رأيه فيما حدث الليلة . وهدان يقول لـــه ، بصوت مستسلم ، ملوي العنق ، وكان هواء الشتـــاء الرطب يهب عليهما من الناحية البحرية ، قال وهدان : ان الحكومة لا بد وانتفعل شيئا ما . وان الحكومة كلها مجتمعة الآن ، في هذه اللحظة ، فـــي مصر ، تدرس الامور . وانها لن تسكت على ما حدث بأي حـــال من الاحوال . ثم قال وهدان : ان من استشهدوا صباح اليوم ، قـــد ضمنوا الجنة ، وقد وجدوا من يدفنهم ، ويبكي عليهم .

— ويا عالم احنا حايحصل لنا أيه .

قال وهدان .

في صباح يوم الاثنين القادم ، يوم عيد الاضحى ، سيخرج في الصباح ، يذهب الى قبر الحبيب ، يشعل البخور ، يقرأ القرآن ، يدخل القبر ، يعيد فرش الحناء ، وتسح الدموع الدافئة على حناء القبر . لن يحضر له او لاولاده او لزوجته ، ملابس جديدة . سيجلس في المندرة ، مع كل افراد عائلته ، كي يتلقى العزاء في فؤاد . فهذا أول عيد بعد استشهاده .

— ليرحمه ، وليرحمنا الله .

قال وهدان لنفسه .

٤ — الهموم في حبة القلب

« .. وانه تبين ان احـدى الطائرات الاسرائيلية ، القت قنابلها خارج الهدف المحدد بسبب حدوث خلل فني » .

(من مقدمة اخبار اذاعة لندن)

كل يوم ، عندما يشيخ النهار ، ويدب الهرم والضعف فـــي أوصاله ، وتبهت الاشياء ، ويذوب شكلها في جوف المساء القـــادم ، تقوم أم ملوم ، تفك رباط الجاموسة ، تذهب بها الى الموردة ، تتركها تشرب كفايتها من المياه الشتوية الباردة ، تلم أشياءها في داخـــل مقطف صغير ، بقايا طعامها ، لفة صغيرة فيها اوراق هامة ، تربط حزمة البرسيم ، تضعها على ظهر الجاموسة ، تودع الحقـل الصغيـر بنظرة حانية ، ثم تسير على الطريق المبلط ، الغامق السواد ، في طريقها الى الضهرية .

وهي في الطريق ، راحت ترتب في ذهنها ما يجب أن تقوم به من اعمال في المنزل . المنزل الصغيـر الخالـي من كل شيء ، حتـــى من صوت تنفس الآدميين في رحابة الليل الطويل . وفي كل مســـاء ، وأم ملوم في طريق عـــودتها من الحقل ، يدور عقلها في اشيـــاء بسيطة ، وما ان تدخل حواري الضهرية ، وتقترب من جامع سيـــدي صلاح ، حتى تقرأ له الفاتحة في سرها ، وتستعد للانعطاف فـــي أول حارة تقابلها حيث منزلها الصغير .

حسبت ، وهي في الطريق ، الايام والليالي . أدركت ان هذا هو اليوم السادس من الشهر العربي . وبعد قليل ، سوف يأتـــي قمر المساء ، حيث أحب ابنها ، وحيث انتهت حكاية حبه .

— أوضتك جوه زي ما هي يا ملوم .

يحضر ، يمضي في الضهرية اياما تمر بسرعة . تفكر فيما يأكله، في غسل ملابسه العسكرية ، كيها . وفي يوم السفر ، تقلع الدموع من جذورها . وينظر اليها ملوم ، نظرته الحانية ، وتكون على شفتيه بسمة هادئة ، كأنها تقول لها ، دونما كلمات ، أنها يجب ان تبقـــي ببئر القلب دمعتين ، نقطتين من الدموع الساخنة ، فمن يـــدري ما تجيئه الايام والليالي .

يوم الخميس ، ليلة الجمعة ، وأم ملوم تدرك ، كما علمها الآباء والاجداد في الزمان القديم ، ان ليلة الجمعة ، ليلة مبروكة ، فيهـا نضاء الشيوخ بشموع تدمع قطرات ساخنة حتى الصباح . وحتـــى المقابر ، تلك البقعة النائية على حدود الضهرية ، يقام فيها ذكر الله، ويتلى القرآن ، وضياء القبور حتى تثقب أشرطة الضوء الفضية رداء الليل الداكن ، يقوم بذلك ملائكة من عند الله سبحانه وتعالى .

وفي ليلة الجمعة ، من كل اسبوع ، تتذكر ملوم ، تحادثه فـــي الخيال ، ترجوه ان يحضر ، ان يكذب كل ما يقال عنه . مهمـــا قيل ، مهما سمعت ، فان ملوم هناك ، في مكان ما ، من مصر الغالية، يتنفس نسمات الهواء التي تمر على الضهرية في كل وقت ، ويشرب من ماء نيلها الدسم ، ويحيا ، وفي الاعماق منه ، حلم وردي صغير ، ببنت الحلال ، وبارضه .

ان مـــا يؤكد لها ذلك ، ان ملوم سبق ان اختفى ، مر عليه نصف عام ، وكادت ان تجن ، غير انه كان هناك هتاف داخلي ، صوت يشبه الهمس ، يؤكد لها في صمت الليل ، ان ملوم لم يمت ، وانه هناك ، وانه سيعود ذات مساء ، وبعد ستة اشهر كاملة ، عاد ملوم ، وكـــان ذلك بعد الحرب الكبيرة ، كان يعلق ذراعه اليمنى بشريط ابيض الى عنقه ، وينطـق الالفاظ ببطء ظاهر ، ولكنه عاد .

وقالت أم ملوم ، وكل اهالي الضهرية ، المهم انه عاد .

— دا الحمد لله ، حتى لو كان كوم عضم .

مكث الملوم شهرا كاملا ، حكى خلاله ، وهو جالس في حجرته الداخلية ، لأمه ولكل من زاره من الاهل والاقارب والاعزاء ، كيف عاد من سيناء . قال كلمات يقف لها شعر الرأس ، وتخفت عند سماعها دقات القلب ، ويجف الحلق .

سافر الملوم بعد شهر كامل .

قال لامه ، انه قد ينقل الى وحدة أخرى ، في مكان لا يعرفه ، وانه قد يحضر بعد شهر ، وخلال الشهر سيرسل لها خطاب ، يلف بداخله همومه واحزانه واشواقه اليها وسؤاله عن الصحة وحال الارض والذرة والجاموسة ، يلف ذلك ، يطويه ، يضعه بداخل خطاب أزرق ويرسله اليها .

ان ام الملوم تقف الآن بجواره ، عند موقف السيارات على الجسر ، جسر ترعة ساحل مرقص . وظلال أشجار الجازورين تتماوج في ليونة على سطح المياه الهادىء ، والقارب الصغير ينقل الناس الى الناحية الاخرى . أم الملوم تحدث ابنها ، نوصيه ، تقول كلمات معادة ، سبق ان قالتها ، مرات كثيرة .

ـ خلي بالك من نفسك يا الملوم .

غير انه لم يعد .

لم يعد بعد ذلك ابدا .

لم يأت من عنده خطاب ازرق ، لا صوت ولا خبر ، ومضت ايام الانتظار ثقيلة الوطأة ، قاسية ، وراحت ام الملوم تنتظر ، في الليل وفي النهار وفي كل الاوقات ، وكانت تجلس خلف باب منزلها تماما ، وتلصق اذنها بخشب الباب . وقد يحدث ان تسمع صوت خطوات تسير في الحارة ، فتحاول ان تتحسس الصوت القادم ، وان تتميزه ، وتتصور انها خطوات ثقيلة ، مضبوطة ، وانها هي خطوات الملوم ، وترفع يدها ، وتقول انها خطواته ، وتمضي الاجزاء الصغيرة من الثواني بالغة البطء ، وتمر الاقدام بعد منزلها الى داخل الحارة ، فتدرك ، في نهاية الامر ، انها ليست اقدام الملوم .

جاري البحث عنه ، مات زوجها من قبل ، تذوقت ألم فراقه ولوعة فقده ، جاري البحث عنه ، ولكن اختفاء الملوم ، ابن عمرها ، شيء آخر تماما ، جاري البحث عنه ، وعند التوصل الى أي معلومات عنه ، سنوافيكم بها على الفور ، كانت قد ارسلت ، عن طريق قريب لها ، رسائل مبللة بدموع العين ، جاري البحث عنه ، وعند ، وتفضلوا .. ـ سيادتكم ـ بقبول فائق الاحترام .

ـ البنت دي عاملة ايه يا أمه .

وتستريح بينه وبينها ، في هدأة الليل ، الحكايا . تنساب الكلمات الصغيرة ، يتحدث الملوم بصوت خافت كالانين .

ـ البنت دي عاملة لي عمل .

تنصت له أمه ، تسمع حكايته ، ويخفق القلب الذي نضب من كثرة الاحزان ، ويختم الملوم حكايته ، فان كل شيء لا بد وان يؤجل حتى ينتهي تجنيده ، ويسرح ويعود للبلد . يقسم الملوم ان هذه البنت ، وهي احلى بنات الضهرية كلها ، عملت له عملا ، حلبت نجوم الليل ، ومن حليبها الابيض الحلو ، عملت له عملا عند الشيخ مبروك ، ووضعته في مياه دلقتها في طريقه ذات صباح ، وانه قد عبر هذه المياه ثلاث مرات ، مرة في طريق ذهابه الى دكان الترزي ، ومرة في طريق عودته منه ، اما المرة الثالثة ، يقسم الملوم ، والسرور يتراقص في نظراته ، انها نادته ، بحروف لينة ، رجته ان يسير من ناحية اخرى ، بعيدا عن الماء ، فلكي ينجح العمل ، لا بد وان يمر عليه ثلاث مرات فقط .

تحية طيبة وبعد . لذا يرجى التكرم بالاتجاه الى مكتب شؤون الغائبين ، بالعنوان الآتي ، ومعك ما يثبت علاقتك به . كي يتم اللازم نحو صرف مستحقاتك المادية ، مع التحية .

ـ الملوم موجود يا اولاد .

ـ دا حتى بعت لي جواب .

كانت تؤكد ذلك ، لكل الناس ، وكانت تقسم انه ارسل لها السلام ، وأوصاها بالاهتمام بصحتها ، خاصة وان الشتاء على الابواب ، وانها سمعت ذلك من راديو الاسطى ابراهيم الترزي ، وان ذلك قد حدث مصادفة اثناء عودتها من الحقل ذات مساء .

الايام تمضي ، لم يعد الملوم بعد . وتخفي صورته ، شيئا فشيئا ، ويذوب كل شيء ، الحزن والأسى واليأس والاشواق ، خلال سوقية الحياة وتفاهتها ، وترجأ كل الاشياء المؤجلة الى الغد ، وتشيخ الليالي الحبالى ، تشيخ حتى قبل ان يأتيها ألم المخاض .

قال لها الملوم ، في آخر أجازة له ، انه في الشهر القادم ، ستنتهي مدة تجنيده ، وسيصرف بعد ذلك مبلغا كبيرا ، عشرة جنيهات وخمسة وأربعين فرشا ، وان هذا المبلغ الكبير ، لذلك ، لا بد من الاستعداد للفرح . المهر . ترميم البيت ، طلاؤه ، شراء نصف فدان ارض . وقال لها ان الايام القادمة ستكون اياما سعيدة ، وان الله سبحانه وتعالى ، قد عوض صبرهم خيرا في آخر الامر .

أم الملوم تسمع همسا من بعض الشبان ، انهم يقفون في الشارع الرئيسي ، يقولون ان من يمضي عليه ثلاث سنوات وهو غائب ، يعتبر شهيدا .

وقفت مكانها ، نظرت الى الشبان ، ثم مضت في طريقها ، ولم تعلق على حديثهم بكلمة واحدة ، وراحت وهي في الطريق ، تعد الايام والليالي ، منذ ان اختفى الملوم ، وعندما أعياها العد ، وعجزت اصابع يديها العشرة ان توصلها الى نتيجة ما ، اقنعت نفسها انه لم يمض على الغائب الحبيب عام واحد ، وان امامها عامين طويلين عريضين ، قد تحدث فيهما الاعاجيب .

في الصباح ، قامت من نومها ، ذهبت الى منزل حبيبة قلب الملوم ، طرقت الباب ، دخلت ، خطبتها له .

ـ بس لما يبان موضوعه يا ام الملوم .

قال والد الفتاة .

هبت فيه ، بصوت عال ، وقالت انه موجود في الجبهة ، وانه هو الذي ارسل لها خطابا بذلك ، وعندما طلب منها الخطاب ، كي يراه ، قالت انه ارسل احد زملائه كي يخبرها بذلك . وافق الرجل ، وأصرت على ان تقرأ الفاتحة ، وان تتفق معه على كل الامور ، المهر ، مقدم الصداق ، مؤخره ، الميعاد ، حاول الرجل ان يرجيء كل هذه الامور لحين عودة الغائب ، غير انها أصرت ان يتم كل شيء .

وفي اليوم التالي ، ذهبت ام الملوم مع ام العروسة الى كفر الزيات ، واشترت النحاس وادوات المطبخ والتنجيد ، وقالت ان باقي الاشياء سيشتريها هو بنفسه عند حضوره ، وقالت انه اخبرها انه يرغب في الذهاب هو وخطيبته الى طنطا ، لشراء الاشياء الباقية . وعادت ، طلبت ان يطلى المنزل كله . ارسلت في طلب البوهيجي ، افهمته ان ذلك من اجل فرح الملوم .

ـ بس لما يرجع بالسلامة .

وأفهمته ان ما عليه الا ان ينفذ وله ما يطلبه . واتفقا في نهاية الامر على كل شيء ، وسافر الى كفر الزيات ، اشترى المونة ، وطلى المنزل كله ، وطلى حجرة النوم برسومات ، عن ليلة الدخلة والعروس والفرح ، وكتب على واجهة المنزل آية قرآنية ، ثم اخذ منها باقي الحساب .

ومرسل طيه ، مرتب الغائب ، عن شهر ، والذي سيصرف اليه في اول كل شهر . كانت تصرف النقود ، تضعها فوق ماهية الشهر

الماضي ، وفي كل شهر ، وهي تتسلم النقود ، كانت تدرك ان للموم يبتعد عنها ، وكانت تجهد نفسها ، لحظة عد النقود ، في تذكر صورته ، في محاولة تقيد احساسها عند سماع صوته ، وكانت الاشياء تبدو باهتة ، موغلة في القدم ، وكان القلب يذوب ، يضمر ، يترك في تجويف الصدر فراغا ، لا تدري كيف تملأه .

في الصباح ، كانت تذهب الى الحقل . تعود منه ، تخاطب من يقابلها ، تؤكد لكل الناس ان للموم سيعود . كانت تخاف ان يستخف بها احد ما ، لقد علمتها المرحومة امها ، ان الناس ، اما شامت او متشف . غير انها في الليل ، عندما كانت تنفرد بنفسها تماما ، كانت تناجيه ، تكلمه ، وكان يعتورها احساس بانه ذهب ولن يعود ، وفي آخر الليل ، كانت تكابد هما صموتا ، وكان الاسى ينثال في صدرها كذوب الرصاص ، وفي بعض الاحيان ، كان ينشر في نفسها احساسا يشبه اليقين بانه ذهب ، ذهب ولن يعود ، فكانت تتمنى ان يكون الرأس بحر ماء ، وان تكون العين ينبوع دموع ، وتجلس هنا ، او على مدار الساقية ، في الحقل البعيد ، وتبكي .

تسوي حجرته ، تلم الحصيرة ، تسندها لحائط الحجرة ، ترفع البطانية ، تلفها فوق مسمار كبير في الحائط ، تضع المخدة على الصحارة ، تكنس الحجرة ، تذهب الى الحقل . وتفسر ام للموم انها ما اهملت في اداء هذا الواجب في يوم من الايام ، وان الحجرة ، في كل صباح ، كانت تبدو نظيفة مرتبة ، كأن صاحبها كان ينام فيها ليلة الامس . ان ام للموم تدرك ، انه مهما بعد عنها ، مهما حدث له ، فانه هنا ، رائحة عرقه ، صوت تنفسه البطيء في ليالي الشتاء ، كلماته عن حبيبة القلب ، حبه لها ، لقاؤه معها .

يا أمي ، يا أم للموم ، للموم غاب ، غاب تماما . ومصر الغالية ، حضر اليها الغزاة ، من البلاد الباردة ، من الشمال ، ومن الشرق ، ومن الغرب ، وكان النيل ، الذي يرتمي بجوار بلدنا ، يرقب الدنيا باحدى مقلتيه ، ويبكي بالمقلة الاخرى ، يبكي مياها غير صالحة للري او الشرب ، مياها مالحة ، للموم تاه منذ آلاف السنين ، تاه قبل بناء الاهرام ، وقبل حفر قناة السويس ، وهو الآن يكمل دورة البحث والسفر والترحال ، في مصر الغالية ، السفر بلا نقطة ابتداء ، وبلا امل في الوصول الى اي مكان ما على الارض ، للموم غائب . وفي مصر أم الدنيا ، يا أم للموم ، قالوا لنا بالحرف الواحد ، وبصوت منكسر ، منطفىء ، جاري البحث عنه .

قالت جارتها انها سمعت ، وهي تملأ المياه ، لحظة العصارى ، الناس يقولون ، ان اليهود ضربوا بلدة اسمها ابو زعبل ، وقتلوا مائة شخص من اهلها ، وان زوجها لم يعد حتى الآن ، كي تعرف منه حقيقة ما حدث ، فهو يعلم اكثر منها كل شيء ، وان الناس في البلد حزانى بسبب ما حدث ، وانه ما دام اصبح بيننا وبين اليهود دم وقتلى ، فان المسألة لا يمكن ان تنتهي بخير ابدا . وان الايام القادمة تحمل في رحمها ويلات وأوفاتا عصيبة ستشهدها مصر . قالت جارتها ، انها رأت في المنام ليلة امس ، ان نهر النيل قد فاض ، وان الفيضان قد زاد عن حده ، حتى اغرق البيوت ، وطمس معالم الاشياء ، وتقسم انها شاهدت فيضان النيل ، يقلع الاشجار من جذورها ، وان البلد كلها غرقت ، وانها في الصباح حكت رؤياها لزوجها ، فزجرها .

ـ فال الله ولا فالك .

وعندما استوضحته سبب زجرها ، ومعنى الحلم ، في ساعة صفاء ، قال لها : ان هناك امرين لا يعني اي منهما خيرا في الاحلام ، وانهما يكونان دليل شر عظيم ، وهما النار والفيضان ، ثم لم يزد على ذلك كلمة واحدة .

قالت ام للموم :

ـ يا كبد امهاتهم عليهم .

وفي ليالي امشير ، لا يطير الكروان ، فغناؤه في رحابة الليل ، قد يحمل الى النفوس املا ناعما ، بان الاحباب الغائبين قد اقتربوا منا ، وان الحبيب الغائب قد يعود يوما ما الى الضهرية . تبدو الضهرية ، لعيني ام للموم ، في عتمة الليل ، وقد أسكرها الحزن ، حتى ثملت ، وبدت وهي تتمايل من شدة الحزن .

حضر اليها هذا المساء ، من اخبرها ان ابنها للموم هناك ، عند الجسر ، وانه يقف بهي الطلعة ، حلو التقاطيع ، وكانت رائحة روث البهائم تملأ الحارة ، وتزحم رائحة الهواء . لم تتحرك ، لم تسأله هوه فين ، رفعت اليه عيونها التي بلا رموش ولوت بوزها ، ونظرت الى الارض .

ـ لا ابني مش جاي النهار ده .

وقالت :

ـ آنت فاكرني مش حا اعرف هوه جاي امتى ؟

قالت الكلمات ببطء ، وكانت نقاط الدمع الساخنة تقف بين مقاطع الكلمات ، وتترك في النفس احساسا موجعا بالفقد . وراح الشاب يقسم لها ان للموم في الطريق الى البيت الآن ، وانه صافحه وسأله عن رجال البلد ، ثم وقف على الجسر مع الشبان ، غير ان ام للموم هبت ، وقفت في مواجهته ، اقسمت له بكل الايمان ، وبصوت متآكل الحروف ، ان للموم لن يأتي الى الضهرية ، هذا المساء .

وفي صباح اليوم التالي .

* * *

٥ ـ نحن الموقعين على هذا أدناه

« ثمة خطأ ما في هذا العالم .

هذا ما نقرره نحن أهالي الضهرية ـ بحيرة البسطاء ، غير اننا عاجزون ، مزهوون بعجزنا ، واعذرونا ، فنحن نعيش في زمان عجيب .

ونحن لا نملك ، الاسف الشديد ، اكثر من هذا » .

(بيان لم يعلنه أحد)

وقت الاصيل ، اشعة الشمس الطويلة اللينة ، ظلال الاشياء التي اكتست أشكالا غير اشكالها الاصلية ، الذكريات الرقيقة التي ترافقها . فتحي يجلس خلف نافذته ، التي تطل على الناحية البحرية ، تستريح نظراته في خضرة الحقول . امامه كتاب مفتوح ، تسرح نظراته على مساحات لانهائية من الخضرة . وعلى البعد ، تلتقي الخضرة بزرقة السماء الداكنة ، في نقطة بعيدة .

ـ أيها المواطنون ، ادلى متحدث باسم وزارة الداخلية ، بالبيان التالي .

يسمع فتحي ، يمد يده ، يقلق الراديو ، تعود نظراته الى صفحة الكتاب ، غير انه لا يقرأ شيئا . سبعون شهيدا ، يقوم من مكانه ، يدور في حجرته ، ينادي أخته الصغيرة ، يطلب منها اشياء لم يكن يحتاجها بالمرة ، تتوه نظراته ، تصعد نحو الضهرية .

يغسل وجهه ، يرتدي ملابسه ، جلباب رمادي ، تحته صديري شاهي ابيض ، يضع كتابه على منضدة تتوسط حجرة نومه ، يتأهب للنزول الى البلد ، يجلس قليلا ، مادا قدميه على آخرهما ، ويفكر ، على الرغم انه لم يكن هناك موضوع محدد يشغل تفكيره في هذه الظروف ، الا انه يحس بشيء مبهم في داخله ، يعود الى ما سمعه ، يتذكر الكلمات ، يحاول ان يستشف معنى محددا له ، لقد قامت

مجموعة من طائرات العدو صباح اليوم . ورغم انه يدرك اشياء كثيرة من مجريات الامور ، الا ان بعده ، عزلته ، نفيه كما يقول هو عن نفسه احيانا ، يشعره في اوقات كثيرة ، بانه عاجز ان يفعل أي شيء . وفي كل يوم يسمع ، يدرك ، يحاول ان يفهم اي شيء ، يتألم لدرجة ان تسح الدموع في اعماقه ، ويسمع صوت تساقطها جيدا ، ثم لا شيء اكثر من هذا . وقديما ، منذ سنوات ثلاث عندما سمع من احد الشبان الصغار ، وكانوا قد تجمعوا لسماع احدى نشرات الاخبار ليلا ، وكان الظلام ممتدا كالمتاهة ، صوت الراديو هزيلا لا يصله بانتظام ، صوت شاب يقول : « لقد عبرت قواتنا الى الضفة الغربية لقناة السويس » . شعر فتحي بانه مخصي ، بأنه ليس رجلا . في الظلام ، سأل نفسه ، ماذا يمكن له ان يفعل ، وبدا له ان اي شيء يقوم به ، في هذا المكان النائي ، لا قيمة له ، انه لا يملك الا ان يتألم ، يجرح ، يسمع ، يدور الامور في ذهنه ، يحاول ان يرتبها ، ثم في نهاية الامور ، ينتابه احساس املس كاذب بأنه يتألم ، ولا شيء اكثر من هذا . وفي صباح اليوم التالي ، السام واليأس ولاجدوى كل شيء ، واحساس ينام تحت الاضراس ، كمذاق حبات الملح الذائبة .

بعد قليل ، سيقوم ، سينزل الى البلد ، سيلتقي بالصحاب ، « أسعدتم مساء » . يدخنون ، يشربون الشاي ، يقولون حكايات كل ليلة ، تشتعل الكلمات من بعضها البعض ، يتوهج الحديث ، قصص تتناقلها الضهرية ، تجر بها الحياة جرا « هل سمعتم آخر الانباء » يقولون كل ما يعرفونه « مين عارف آخر نكتة » .

وتجف الضحكات على الشفاه قبل ان تولد ، يبسمون ، تلتمع في عيونهم بسمات حزينة ، غير انهم في النهاية يفترقون ، على وعد ان يلتقوا مرة اخرى ، في نفس المكان ، وهو منزل صديق لهم ، مساء الغد ، نفس الموعد ، يبددون وحشة الليالي القادمة .

وقت الغروب ، تلك اللحظة اللينة في كل شيء ، الظلال والاصوات واشكال الاشياء . يقف فتحي ، يطل على الحقول ، الرجال في حقولهم ، يبذرون البذور ، في أرض صماء عارية ، أرض اصابها البور ، بلا امل في مطر قريب ، ورجاء في حدوث معجزة ما ، طلبا للخصب والنماء . في كل يوم ، ساعة الاصيل ، وفتحي يشرب الشاي ، قبل ان ينزل الى البلد ، يعاهد نفسه على مناقشة كافة الامور مع اصدقاء الليل ، ويقسم لنفسه انه سيقول كل شيء ، وليلتصق لساني لسقف الحلق ، ان لم نقل كل ما في الصدور .

ـ وقصف المصنع بالرشاشات والنابالم .

يحس فتحي ، هذا المساء ، ان ارض هذا البلد ثقيل ، وان ظلام الليلة القادمة سيأتي ، يحتوي كل الاشياء بداخله ، وسيرين على الضهرية صمت أبدي ، وعندما يأتي النهار ، تتساقط نقاط الضوء الفضية على البلد ، كي توقظ الناس والاشجار والبيوت ومئذنة الجامع ، سيجد ان كل شيء قد ضاع في جوف الليل الماضي ، ولا يبقى في النهاية سوى الذكريات والحنين للاهل والاحباب ، ذلك ما ينبقى عادة من رماد الذكريات .

* * *

امام دكان الترزي الكبير ، في الشارع الرئيسي ، وعلى ضوء كلوبه الباهت ، وقف جمع من التلاميذ ، بعضهم في مدرسة انصاري سمك الاعدادية ، وبعضهم الآخر في الصفوف النهائية بمدرستي الوحدة المجمعة ومدرسة عمران عبد الكريم الابتدائية ، ومنهم بعض التلاميذ الكبار الذين يكملون تعليمهم في البنادر ، ايتاي البارود ، دمنهور ، وهؤلاء لا يحضرون الى الضهرية الا في نهاية كل اسبوع ، خميس وجمعة فقط ، ويبدو عليهم اضطراب وخجل ، يسلمون على من يقابلهم من اهالي الضهرية ، فهذا هو رحيلهم البكر ، في سفر الترحال عن الضهرية الحبيبة الى نفوسهم . ان التلاميذ يقفون وفي يدهم كتاب الجغرافيا ، يجلسون على المصطبة ، يقتربون من بعضهم تجمعوا حتى اصبحوا في دائرة ضوئية صادرة من الدكان ، بل احدهم اصابع يده من فمه ، وابتدأ في تصفح الكتاب ، واستمر والعيون تلاحقه ، والاصابع الصغيرة تشير هنا وهناك ، والصغار من حوله ، كل واحد منهم يحاول ان يتذكر معلوماته عن جغرافية مصر العظيمة . حتى عثروا أخيرا على خريطة ، شكل رقم « ٣٨ » الصفحة رقم « ٥٨ » ، المناطق الصناعية في دلتا نهر النيل . وقرأوا جميعا ، في وقت واحد ، ابو زعبل ، الخانكه ، المعادي ، حلوان ، وعلى مقربة منهم ، قاهرة المعز لدين الله الفاطمي ، ترقب كل شيء ، بعيون مستطيلة ، باهتة القل ، خالية تماما من الدموع من كثرة ما شاهدت في سالف العصر والاوان .

انصرف التلاميذ عن كتاب الجغرافيا ، وعن الخريطة التي تراهنوا عليها ، وتعبوا حتى عثروا عليها ، وبدأ كل منهم في مناقشات. وراح القادمون من البنادر ، يقصون حكايات عن ضرب مصنع ابو زعبل ، قصص صغيرة ، لم تذع ولم تنشر ، غير ان كلا منهم قد عرفها بطريق ما ، ورفض ان يذكر المصدر الذي عرف منه هذه الاخبار .

وتمنى الصغار ، بعد مناقشاتهم ، ان يخسف الله الارض باميركا ، او يرسل عليها دمارا يقضي على كل شيء فيها ، فهي سبب ما حدث . اما العدو ، فهو لا وجود له بدون اميركا . وشرح لهم أحد الصغار ، ان هذه الحرب واردة في القرآن ، في سورة ايه ، في سورة ايه ، مانيش فاكر ، وقال لهم ، بعد ان اقسم بالله العظيم ، ان نبوءة القرآن ، انهم سينتصرون علينا مرة ، ومرة ، ومرة ، وبعد ذلك ستتحول الامور ، هكذا ينبئنا القرآن ، وسننتصر عليهم ، ولن يقوم لهم بعد ذلك وجود . وقال آخر ، انه سمع في المدينة رجالا يتكلمون ، وكان أحدهم يقول ، ان شهر فبراير سنة الف وتسعمائة وسبعين ، سيظل يذكر ، على ان مصر لم تر مثله من قبل ، ولا حتى في ايام الحرب الكبيرة .

* * *

علينا جميعا ان نقهر هذا الصمت . فتحي يجلس بين رفقة السهر ، تناولوا الموضوع من كل جوانبه ، دارت عليهم اكواب الشاي اكثر من مرة ، واحضر صاحب المنزل راديو صغيرا ، وضعوه في منتصفهم تماما ، أداروا مؤشره ناحية اليمين واليسار ، سمعوا كل محطات العالم ، الانباء ، التعليقات ، برنامج في محطة بعيدة عن اخبار العالم العربي ، احتد بعضهم في الحديث ، أدان موقف الحكومة . رد عليه الآخر بان الموضوع ليس نحمسا شخصيا ، وان هناك اعتبارات أخرى لا يعرفونها ، حيث يجلسون هذه الجلسة المريحة ، يشربون الشاي ويثرثرون .

اعتبارات ايه ، دا كلام فاضي .

قال له الآخر ، اننا لسنا بمفردنا في العالم . وتحدث عن موازين القوى ، وميزان الرعب والحرب النووية القادمة حيث لا غالب ولا مغلوب وانما الدمار للجميع ، وقف أحدهم ، وهو الذي يؤيد الحكومة ، وتناول وضع الاتحاد السوفياتي بالحديث :

ـ انما ايه رأيك يا استاذ ؟

ـ هيه .. رأيي .

ـ مالك الليلة ؟

انتبه فتحي اليهم ، احس بكلماتهم كأنها أصوات ليلية مكتومة تصل اليه من بعيد ، زحفت في صدره مقاطع الكلمات ، انتشرت مثل الانين الموجع ، رانت على الجميع فترة صمت ، الكلمات ثقيلة ، ثقيلة بين شفتيه ، في ابي زعبل سبعون شهيدا ، والقاهرة مظلمة الآن تماما . وربما يتردد في حارات القاهرة الضيقة ، في الاحياء

الشعبية ، نداء بالغ المرارة : طفوا النور ، طفوا النور .

ـ والله مانا عارف أقول ايه يا جماعة .

أكمل احدهم في صوت واضح النبرات ، ان الرئيس رجل صعيدي ، دماغه ناشفة ، وانه لن يترك الكلاب يدنسون البلد ، وان مصر كلها لن تسكت على ما حدث صباح اليوم . قال : مهما تكلمتم عن العالم من حولنا ومساندة اميركا للعدو ، فنحن لن نسكت ، وقال اننا لا بد وان نسمع من اذاعة صوت العرب ، باكر ، بعد قرآن الصباح ، ما يؤكد ذلك ، وقال ايضا ، انه عنده يقين داخلي، ايمان ، بأن المسألة لا يمكن ان تقف عند هذا الحد .

وشاخت الكلمات ، دب فيها العجز والهرم ، واصبحت تخرج من الافواه كسولة مسترخية ، واستطالت مساحات الصمت ، وانشغل بعضهم بحل الكلمات المتقاطعة ، والبعض الآخر في قراءة اخبار اهل القاهرة .

* * *

عبده البقال منهمك في عمله اليومي ، أمامه دفتر الشكك ، يدون فيه ما فانه تدوينه ، دفتر متسخ مثقل ببقع الزيت والكاز ، يطلب منه احد الزبائن طلبا ما ، يضع القلم الكوبيا خلف اذنه ، يعطي الزبون طلبه ، ويعود الى دفتره ، مقربا عينيه من الدفتر . يقف الرجال حول البنك ، يتحدثون في امور يومهم ، وعبده يشاركهم في الحديث بكلمة ، صوت لا يعني أي شيء ، الرجال يقفون ، في مثل هذا الوقت ، وفقة تسترخي فيها اعضاء الجسم ، يستريحون من عناء اليوم ، ويذكر كل منهم نفسه ، بأن في الحياة اشياء حسنة . ينصت الرجال ، يستمعون الى ما يقال ، يكون كل منهم لنفسه رأيا محددا ، وعند عودته الى منزله ، سيقوله لزوجته ، وهو يخلع ملابسه ، ويعلقها على الحمالة في حجرة نومه . يقوله على انه رأيه الشخصي ، ولا يمكن ان يناقشه فيه احد ، ثم يقرن حديثه لزوجته ، بحكمه على الامر كله « وانا والله كان دا رأيي كدا من زمان ، انما مين يسمع » .

قال احد الواقفين :

ـ ما كنا بضرع الجار السو يا برحل ، يا تيجي له داهية .

دهش الجميع ، دفنوا كلماتهم ، التي كانت تبلل شفاههم ، في قلوبهم ، وحومت فوقهم لحظة صمت ، وعادوا فنظروا الى انفسهم ، وتصور كل منهم بطريقته الخاصة ، ان هذا الرجل ليس منهم ، ولكنهم تذكروا انه فلان ، ابن فلان الفلاني ، وان زوجته من عائلة معروفة في البلد ، غير ان هذا الكلام لا يمكن ان يقال في مثل هذه الظروف ، وبدأت الكلمات خجولة ، وتكاثفت ، وكادوا ان يختلفوا ، لولا ان شرح احدهم لصاحب هذه الكلمات ، ان هذا المثل القديم ، قد يكون صحيحا ، ان كان هذا الجار منا « يعني مصريا » ، اما ان يكون يهوديا ، فاما نحن واما هم ، ولا يوجد حل ثالث للمسألة ، وقال لهم ان الرجال في مصر ، وخاصة في الريف ، يولدون ويولد معهم قدر من الصلابة والعناد ، وان هذا العناد يظل معهم ، طيلة العمر ، تقدرهم تماما .

* * *

فتحي في طريق عوده الى منزله ، وفي هذا الطريق ، يكون الحنين وحزن آخر الليل ، والعودة من رحلة كل يوم ، فتحي يسير متمهلا ، واضعا يديه في جيوبه ، مخترقا بنظراته الظلام المتراكم امامه . ذهب الى البلد ، سهر ، شرب الشاي ، سمع اصدقاء كل ليلة يتحدثون ، كلمات منفية غريبة . قام ، سلم عليهم ، تواعدوا على لقاء في مساء الغد ، ابتسموا لحظة الفراق لبعضهم البعض ، اوصلوه الى خارج البلد ، اخيرا وجد نفسه بمفرده ، وسط الليل الشتوي البارد . وأدرك ، عندما اصبح بمفرده تماما ، ان في اعماقه شيئا ما ، له ثقل الحديد ، وبرودة الثلج ، وكان يتساءل : ما العمل ؟ وكان الرد الوحيد ، انه يكفيه انه منفي هنا ، يكابد مرارة النفي كل لحظة من العمر .

* * *

« جزء من تفكير السيد فتحي مصطفى في هذه الليلة ، عندما اصبح بمفرده تماما ، وأرجأ تدوينه الى الغد » .

في روح كل فلاح في الضهرية ، بذرة صغيرة ، بالتحديد في قلبه ، وقد تذبل ، يعلوها صدأ قديم ، غير انها لا تموت ابدا ، بل تعيش في روحه ، وتظل مختبئة وسط الظلام والخطيئة ، قد تكون هذه البذرة حبه لاهله ، اولاده الصغار ، بلده ، عيدان النباتات الخضراء النامية في الحقول ، مساحات الظل المتآكلة الاطراف على الجسر وقت الظهيرة ، مياه النيل الدسمة ، هواء بلده الطري ، حبه لمر مصر . وهو يدرك هذا ، دون شرح او تفسير « ثم ارتفع عدد الضحايا في المساء الى سبعين شهيدا » ، جال بخاطره احساس محدد عن العدل ، انه يريد الانصاف وهو على ظهر هذه الارض ، انهما لا قيمة لهما ان آتيا في زمان او مكان ناء عنه . لا بد منهما الآن ، وان استشهد ، هو او غيره ، فلا بد وان ينهض من قبره ، يعود الى الحياة ، كي يرى الانصاف بنفسه على ارض مصر ، وقد يتحول بعد الموت الى تراب ، ربما سماد ، ولا يبقى منه سوى اشياء لا تثير سوى الذكريات في النفوس ، اما الانصاف والنصر ، فقد يكون لانسان آخر ، مصري غيره ، يأتي من رحم الغيب ، غير انه يجب ان ينتزع الانصاف ، ولا يجلس هنا ، في ركن من قرية صغيرة، في انتظار ان يهبه اياه انسان آخر سواه .

* * *

دخل منزله ، أشعل مصباحه الصغير في حجرته ، خلع ملابسه ، تناول طعام العشاء ، اخذ يدور في حجرته ، ارتدى بيجامة زرقاء ، اعاد تنظيم الحجرة ، جمع كتبه ، اوراقه ، اقلامه ، وضعها في حقيبة صغيرة ، اقترب من النافذة التي تطل على الناحية البحرية ، فتحها ، شم هواء الحقول المشبع برائحة النباتات ، مختلطة برائحة الزهور الربيعية ، كان يشعر برغبة في الغناء ، في ان يقول أي شيء ، حتى لنفسه .

* * *

« قرار شبه نهائي ، اتخذه السيد فتحي مصطفى ، غير انه ارجأ تنفيذه الى صباح الغد »

في الصباح ، قبل ان يذهب الى المدرسة ، سيذهب الى مكتب البريد ، يسلم ، يسأل عن الحال ، ويأخذ من وكيل المكتب نموذج تلغراف مطبوع ، يخرج قلمه الحبر الانيق من جيبه ، ويستأذن وكيل المكتب في الجلوس ، وبعد ان يقول له وكيل المكتب « تفضل يا استاذ » يجلس ، يعتصر ذهنه ، يخط بيده اليمنى تلغرافا الى مصر الغالية ، يقول فيه ، بكل بساطة ، يا مصر ، يا ارملتنا العذراء ، فكي ضفائر حزنك السوداء ، اجدليها ، ارسليها الي ، عبر الليل ، كي آتي اليك ، سائرا عليها ، ثم ارتدي طرحة في لون الليل ، ليل ريفنا الدسم . حتى تذهب الغمة ، وينجلي الكرب .

فهذا هو قدرك .

يا أحلى صبايا العصر .

القاهرة

محمد يوسف القعيد